



محاضرات في الأدب الإسلامي

المحاضرة الخامسة

مسلك الدراسات الإسلامية

الفصل الرابع

الدورة الربيعية

وحدة الأدب الإسلامي

إعداد: ذ. ادريس أبوزيد

الأغراض الشعرية بين الأدب العربي والإسلامي:

تنوّعت أغراض الشعر العربي وتطورت منذ العصر الجاهلي، وذلك حسب ما تقتضيه أحوال الناس، وبناءً على الأهداف التي قيل من أجلها الشعر في كلّ مرحلة، إلا أنّه بشكلٍ عامّ كانت أغراض الشعر العربي محصورةً في عدة أغراض استمدّها من البيئة التي خرج منها، وفيما يأتي بيان بعض أهم أغراض الشعر العربي في الجاهلية وأثر الإسلام عليها:

الأول: الغزل:

وهو الشّعْرُ الَّذِي يُقَالُ فِي الْحُبِّ، ويسمى أيضاً بشعر النسيب، وهو فنٌّ من الفنون الشعريّة وغرضٌ من أغراض نظم الشعر التي مارسها الشعراء منذ القدم وحتى الوقت الحاضر، ويكون بوصف الجمال والتعني به، والاشتياق للمحبوبة والحزن والبكاء عليها في حالة الفراق، كما يصف المحبوبة وجمالها ويُرَكِّز على مواطن التميّز فيها، ويعكس تجربة الشاعر الذاتية والوجدانية الخاصّة.

والغزل من أكثر فنون الشعر العربيّ نتاجاً، ويتميز أسلوب شعر الغزل بجزالة في الألفاظ وسهولتها، وثرأءٍ وغنىً في المشاعر والعواطف التي تستبد بحال الشعراء.

ويتربع الغزل على عرش الشعر في العصر الجاهلي، وتكاد لا تخلو قصيدةٌ من الغزل حتى وإن لم يكن هو الغرض الأساس فيها، فلا بد للشاعر أن يذكر الغزل في قصيدته. وهو على قسمين:

*غزل عذري عفيف، فيه تصويرٌ لحرارة حبّ الشاعر، لكن دون فُحشٍ في التعبير أو مبالغةٍ في وصف مفاتن المحبوبة، ومن أشهر شعرائه: جميل بن معمر، وقيس بن الملوّح.

*غزل صريح أو فاحش، وزعيمه امرؤ القيس، ونجد ذلك واضحاً في معلقته التي يصف فيها مغامراته الليلية مع النساء.

ولما جاء الإسلام حافظ على هذا اللون من الشعر، فأبقى على العذري، ونهى عن الماجن والفاحش منه، وقد ثبت في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع إلى كعب بن زهير وهو

يلقي عليه قصيدته المعروفة، فأعجب بها وكساه بردته الشريفة، ومطلع القصيدة كله في الغزل، وأولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ مُتيمِّمٌ إثرها لم يُجزَ مكبولٌ
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أعزُّ غَضِيضُ الطرفِ مكحولٌ
هيفاءً مُقبلةً عجزاً مُدبرةً لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طولٌ

وكان الصحابة والتابعون يتمثلون في مجالسهم بأبيات من شعر الغزل كابن عباس، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وكان إمام المدينة عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود الهذلي شاعراً متغزلاً، وهو من فقهاء المدينة السبعة المعروفين، ومن شعره:

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها أطيّر لو أن إنساناً يطير

ولم يهمل العلماء المسلمون شعر الغزل بل كانوا يهتمون كثيراً بأخبار العشاق والمحبين، وأشعارهم، وأحوالهم، بل إنهم ألفوا في ذلك مؤلفات، فابن حزم كتب كتابه “طوق الحمامة” وهو في أخبار العشاق والمحبين وأشعارهم، بل قد ملأه وحشاه من شعره الغزلي الذي كتبه هو، وابن حزم هو من هو في العلم والفقه، وصاحب كتاب المحلى الشهير. وألف ابن القيم كتابه “روضة المحبين ونزهة المشتاقين” وهو سفر كبير فيه أخبار العشاق وأشعارهم وقصصهم، ومما قال في كتابه: “والشفاعة للعشاق فيما يجوز من الوصال والتلاقي سنة ماضية وسعي مشكور”

الثاني: المدح:

المدح أيضاً من أهم أغراض الشعر العربي، سواء في العصر الجاهليّ أو الإسلاميّ، والمدح يكون إما إعجاباً بأشخاص، أو اعترفاً بجميل ما، أو حباً في العطاء وحسن السمعة. وارتبط المدح كثيراً

بالتكسب عند الشعراء، وطلب الحظوة عند الأمير؛ وبرع فيه الأعشى والنابغة الذبياني. ويبقى أبو الطيب المتنبي أحد أبرز وأشهر الشعراء في المدح.

ومع مجيء الإسلام ظهر لون جديد من المدح لم تعرفه العرب قبل؛ ألا وهو فن المديح النبوي. وكان من رواد هذا الفن حسان بن ثابت رضي الله، ومن أبدع أبياته وأروعها في المديح النبوي، قوله:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي * وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ * كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وقبل حسان مدحه عمه أبو طالب بأبيات يروي فيها بعض خصاله ومكارمه في قومه، فأنشد:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ¹

يَلُودُ بِهِ الْهُلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهَمُ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

ومن روائع المدح الإسلامي في العصر الحديث قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي، وفيها يقول:

وُلِدَ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتِ ضِيَاءٌ *** وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءٌ

بِكَ بَشَرِ اللَّهِ السَّمَاءِ فُزِينَتِ *** وَتَضَوَّعَتْ² مِسْكَاً بِكَ الْغُبْرَاءُ³

الثالث: الحماسة والفخر:

حيث يقوم الشاعر بذكر أمجاد قبيلته، أو نفسه، والتعني بالبطولة، والشهامة عند من يذكروهم، وينقسم الفخر إلى الفخر الشخصي، والفخر القبلي. يعدُّ هذا الغرض من أشهر أغراض الشعر

1. قوله: وأبيض: العرب تمدح سادتها بالبياض، ولا يريدون بياض اللون، وإنما يريدون النقاء من العيوب، وربما أرادوا به طلاقة الوجه. والثمال: العماد والملجأ. يقال أن قصيدة أبي طالب هذه أبلغ وأفحل من المعلقات السبع، وقمة في تأدية المعنى.

2. تَضَوَّعَتْ: انتشرت رائحة المسك بقوة

3. الغبراء: الأرض

العربي خلال كثير من المراحل التي مرَّ بها، خاصّة في العصر الجاهلي، فاشتمل على البطولات والشجاعة والصدق والكرم والعفة والافتخار وغيرها.

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ الفخر عند الشعراء المسلمين ، منحاً جديداً، تشرب بروح الإسلام وترك وراءه الولاء القبلي ولم يعد يفتخر بالعصبية القبلية بل ركز على معان جديدة للفخر تتمثل في: الحرص على نيل الشهادة ، والفخر بانتصارات المؤمنين، وبتأييد الله والملائكة لهم، كما حافظ الإسلام على القيم الإنسانية النبيلة والتي جاء الرسول صلى الله عليه وسلم متمماً لها بقوله : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . مثل إكرام الضيف والعفة والشجاعة .. وغيرها، ومن القصائد الفخرية في الإسلام قول كعب بن مالك مفتخراً بيوم بدر:

أَبْلِغْ قَرِيشاً وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ** وَالصَّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ** فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ

إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا ** وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلُ

وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهًا ** فَرَأْيِي مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلُ

الرابع: الهجاء:

وهو عكس الفخر، وموضوعه الشتيمة والوقية بالأعداء بسلاح الأشعار والقصائد، ويذكر فيه الشاعر عيوب بعض الناس، أو الأعداء، وعادة ما يتخلل هذا النوع من الشعر التهديد، والوعيد. وهو أحد أغراض الشعر العربي التي كانت منتشرة سابقاً وخاصة في العصر الجاهلي، وبسبب الحروب الكثيرة والطويلة بين القبائل والتي كان يستمر بعضها لعشرات السنوات وبسبب البيئة الصحراوية الجافة ساعد ذلك على انتشار هذا الغرض. وكانت نقائض الفرزدق وجرير والنميري أشهر هجائيات الأدب العربي. ولما جاء الإسلام هذب من هذا الغرض ليكون من أجل الدفاع عن الإسلام ورد هجاء المشركين، ولم يسمح بأن يكون سلاحاً للقدح في الحرمات والأعراض. وكان

حسان بن ثابت، وكعب بن زهير من أشهر الشعراء الذين اتخذهم النبي صلى الله عليه وسلم للدفاع عن الإسلام ورد حملات المشركين ودعاية شعرائهم.

ومن أشهر القصائد الإسلامية في فن الهجاء، تلك التي هجا فيها حسان بن ثابت شاعر قريش أبا سفيان بن الحارث حين هجا النبي صلى الله عليه وسلم وأزرى بدعوته، فرد عليه حسان بقصيدة طويلة، اخترنا منها هذه الأبيات:

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ 4 *** سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا *** وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ 5
أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي *** مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ 6
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا *** وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ *** وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ *** فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمْ 7 الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا *** أَمِينَ اللَّهِ شِيَمَتَهُ الْوَفَاءُ 8
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ *** وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ؟
فِيَنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِزِّي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ 9
لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ

الخامس: الوصف:

4 . يعني بمعد قريشاً ، نسبهم لمعد بن عدنان .

5 . فنحكّم: نمنع، والقوافي: القصائد، والمعنى أنه يجيب الهاجي بأبلغ من هجائه وأصعب عليه فيمتنع من العود، ويعني باختلاط الدماء التحام الجيشين .

6 - المغلغلة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد . وِريح الخَفَاءُ : أي انكشف السر وظهر المُضمر .

7 . (شركما): كناية عن أبي سفيان، (لخيركما): كناية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

8 - البرُّ: النقي، والحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى دين إبراهيم . والشيمة: السجية والسليقة والطبيعة .

9 . (الوقاء): الحفظ والصون، الصارم: السيف القاطع، بحري لا تكدره الدلاء: الدلاء أوعية الغرْف، لا تكدره، أي لا تغيره . وهذا مثل يضرب للرجل العظيم، الحليم القوي، الذي لا يبالي بما يرد عليه من الأمور .

يعدُّ الوصف من أهم الأغراض وربما أكثرها انتشارًا في الشعر العربي منذ بدايته وحتى العصر الحديث، فقد لا تخلو قصيدة عربية من الوصف بشكلٍ أو بآخر، فقد كان الشاعر يصف كل ما تقع عليه عينه، وكل ما يشعر به من أحاسيس، وما يتذوقه من مظاهر الجمال، فالوصف من أوسع أبواب الشعر على الإطلاق؛ حتى قال ابن رشيق: الشعر كله راجع إلى باب الوصف.

ومعنى كلامه هذا أن الكثير من أغراض الشعر العربي الأخرى هي في الحقيقة وصف، فالممدح وصف، والهجاء وصف، والغزل وصف، وهكذا.

وكان الشاعر في الجاهلية يصف إما محبوبته أو كؤوس الخمر التي يعاقرها، أو يصف فرسه، أو سيفه أو معاركة التي يخوضها. أما في العصر الإسلامي فقد ازدادت مكانة الوصف في الشعر، خاصة مع ازدهار الحضارة العربية في العهد العباسي، وفي فترة ازدهار الحضارة الأندلسية لاحقاً، وانغماس الشعراء في الملذات والمتع الحسية؛ فكثر وصف الطبيعة ورياض الأزهار، والبساتين والقصور، وغيرها، فترى الشاعر يصف أدق تفاصيل الطبيعة إلى حد التشخيص، أي كأنها كائن حي ينطق كالبشر، ومن أشهر الأمثلة، هذا البيت الذي أنشده البحري وهو يصف فصل الربيع:

أتاك الربيع الطلقُ يختال ضاحكًا * من الحُسنِ حتّى كاد أن يتكلّمًا**

السادس: الرثاء:

وهو غرض يُعبّر عن الحزن، والأسى لفقدان شخص ما عزيز على الشاعر، أو على قبيلته، وهو أحد أنواع شعر المديح إلا أنّه يتعلق بذكر خصال وصفات الشخص الميت مصحوبًا ذلك بالأسى والحزن والتفجّع، وقد كان منتشرًا وما يزال بسبب كثرة الحروب والقتل الذي لم تخلُ منه مرحلة من المراحل التي مرت بها الأمة العربية.

وكما كان الشعراء يذكرون المحاسن ويعددون الفضائل بقصيدة الممدح، كذلك برعوا بذكرها في قصيدة الرثاء حتّى عُرفت قصيدة رثاء الميت بذكر فضائله، وكان للمرأة دور مهمّ في رثاء القتلى بالحروب، ومن النساء اللّاتي برعنَ في هذا المجال هند بنت عتبة التي حاكت الخنساء برثاء أخويها صخر ومعاوية. وبقي الرثاء في صدر الإسلام، وجعل له حدودا وضوابط؛ جعلته لا يجاوز

حد الحزن والأسى الفطري في الإنسان، فلا سخط فيه على قضاء الله وقدره ولا دعوة فيه بالويل والتبور والدعاء على النفس بالهلاك، ومن ذلك ما قاله حسان بن ثابت رضي الله عنه في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم:

بَطِيئَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدُ    مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَو الرُّسُومُ وَتَهَمَدُ

أَطَالَتْ وَقُوفاً تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا    عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ

فَبُورِكَتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتَ    بِإِلَادِ تَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ    وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

السابع: الحكمة:

شعر الحكمة عند العرب هو الشعر الذي لخص به الشعراء تجاربهم في الحياة، فكان معظم شعراء العرب الذين يكتبون الحكمة يكتبونها في أواخر حياتهم، ففي العصر الجاهلي اشتهر الحكيم زهير بن أبي سلمى الذي كانت معظم أشعاره حكماً تُقرأ وتُتلى بين الناس.

أمّا في العصر الإسلامي فقد امتزجت حكمة الشعراء بالآراء الإسلامية التي تُعدّ من أعظم الحكم التي قد يستخلصها امرؤ في حياته كلّها، وكان أشهرهم حسان بن ثابت، واشتهر في العصر الأموي النابغة الجعدي وأبو الأسود الدؤلي. وفي العصر العباسي أبو تمام والمنتبي وأبو العلاء المعري أشهر وأحكم الشعراء في ذلك العصر، ومن الحكم التي أنشدها المنتبي:

- وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مُرادها الأجسام
- ما كلُّ ما يتمناه المرء يدركه * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
- ومن يهنّ يسهل الهوان عليه * ما لجرحٍ بميتٍ إيلام